﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: 21 - 23]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

توبيخ المشركين وإثبات الوحدانيَّة

قال الفخر الرّازي: "اعلم أنَّ الكلام من أول السُّورة إلى هنا كان في النُّبوّات وما يتَّصل بها من الكلام سؤالًا وجوابًا، وأمّا هذه الآيات فإنَّها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد"، ويقول البقاعي في مناسبة هذه الآيات لما قبلها: "ولَمّا كانُوا عِنْدَ هَذا البَيانِ جَديرينَ بِأنْ يُبادِرُوا إلى التَّوْحيدِ فلَم يَفْعَلُوا؛ كانُوا حَقيقينَ بَعْدَ الإعْراضِ عَنْهم - بِالتَّوْبيخِ والتَّهَكُّمِ والتَّعْنيفِ"[1] وإجمالًا "فبعد أن بيَّن سبحانه أنّ من مخلوقاته مَن يقوم بتسبيحه وعبادته بدون انقطاع أو فتور؛ أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وبإقامة الأدلة على وحدانيته، واستحالة أن يكون هناك مَن يشاركه في ألوهيته فقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنشِرُونَ﴾: (نشر) أصلٌ يدلُّ على فتح شيء وتشعبه، ونشرَ الثَّوب، والكتاب نَشْرًا: بَسطهُ، وأنْشَر اللّهُ الريحَ: أحياها بعد مَوْتٍ، وأرْسلها نَشْرًا ونُشْرًا، والنُّشور: الحياة بعد الموت، يُقال: نَشرهُمُ اللّه؛ أيْ: بَعثهم[3]؛ فالمعنى المحوريُّ للنَّشر تفرُّقٌ ببسطٍ وامتدادٍ، ومن مجازه: نَشر اللّه الميّت؛ إذا أحياه؛ لأنَّه إذا حَيّ انبسط؛ والبعثُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 402.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 196.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سِيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية: (نشر).

أدقّ؛ لأنَّه إثارة وإقامة يظهر فيهما الامتداد والانبساط[1]، وقوله تعالى ﴿يُنشِرُونَ﴾ من إنشار الأموات؛ أيّ: بعثهم وإحياؤهم[2].

2) ﴿لَفَسَدَتَا﴾: (فسد) كلمة واحدة، هي الفساد: نَقيضُ الصَّلاح، وفَسَّد الشّيءَ: إذا أبارَه، وفَسد الشّيءُ: بَطل واضْمَحلّ، ويكون بمعنَى: تَغيَّر[3]، وهو بمعنى خروج الشَّيء عن الاعتدال، قليلًا كان أو كثيرًا، ويُستعمل في النَّفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة[4]، وخلاصة القول في الفساد: أنّه يشمل إهلاك الزَّرع والنَّسل؛ أي: الثروة العامَّة والأضرار التي تَمسُّ النّاسَ مباشرةً، أو بالغشّ والإهمال في إدارتها، ومن الغش والخيانة الارتشاءُ والمحاباة، ويشمل السرقة، ونهب المال العامّ، وسَفْك الدماء، وبهذه المعاني كل ما تصرّف من هذا اللفظ في القرآن الكريم[5].

3) ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾: (سبح) أصلان: أحدهما أنّه جنسٌ من العبادة، ومنه التَّسبيح، وهو تنزيه الله جل ثناؤه من كل سوء، وعن كل ما لا ينبغي أن يُوصَف به، والعرب تقول: سبحان من كذا؛ أيّ: ما أبعده، وأصْلُه: المَرُّ السَّريعُ في الماء، وفي الهَواء، وفي عبادة الله تعالى، ثم جعل التَّسبيح عامًّا في العِباداتِ قولًا كان، أو فِعْلًا، أو نيَّةً[6]، وغالبُ ما في القرآن من التَّرْكيب تُفسَّر فيه (سَبَّح) وتصْريفُها: بالتَّنْزيه والبَراءَة من أنْ يُنسَب إليه تعالى ما لا يَليقُ به[7]، أو أنْ يصفه مخلوقٌ بوصف؛ فهو أمر بتنزيه ذاته وصفاته ﷻ عن أحوال النقائص[8].

4) ﴿ٱلْعَرْشِ﴾: (عرش) أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبنيٍّ، ثمَّ يُستعار في غير ذلك[9]، والعَرْش في كلام العرب سرير الملك؛ لأنَّه يُصْنَع منبسطًا مرتفعًا عن الأرض[10]،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نشر).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 61، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 38.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (فسد).
(4) الراغب، المفردات: (فسد).
(5) المعجم الاشتقاقي: (فسد).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (سبح).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عرش).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 149.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرش).
(10) الأزهري، التهذيب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عرش).

وكلّ بناءٍ يُسْتَظلُّ به فهو عرشٌ؛ ومنه المسقّف، وقد كُنّي به عن العزّ والسُّلطان والمملكة، وعَرْشُ اللّه: ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلّا بالاسم، وعبَّر به عن ملكوت ربنا؛ لأنَّه ملك الملوك[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يُـنـازع اللـهَ تعالى في مُلكِه أحدٌ

"اتخذ المشركون آلهةً من الأرض من دون اللّه يحيون الموتى من قبورهم؛ أيْ: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها للّه ندًّا وعبدوها معه؟! والمُراد بالآية: التَّذكير بخواصِّ الألوهيَّة التي منها إحياء الموتى من قبورهم، فإن المشركين وإن لم يصرحوا بذلك؛ فإنهم بادعائهم الألوهيَّة لها يُثبتون تلك الصِّفة لها، ووصف الآلهة بكونها من الأرض إشارةً إلى أنَّها من الأصنام المعبودة في الأرض، وهذا تهكُّمٌ بهم وتوبيخٌ وتجهيلٌ لهم".

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَمِ﴾ ودلالة التعبير بها:

إبْطالُ الإشْراكِ وإبْطالُ تَعدُّدِ الآلِهَةِ

أفتُتحتِ الآيةُ الكريمة بـ ﴿أَمِ﴾ المنقطعةُ؛ لكونها تقدَّرُ بـ(بل) المؤذنة بإضراب الانتقال عمّا قبلها وهمزة الاستفهام المؤذنة بالإنكار لما بعدها، والمُنكَر: هو اتخاذهم آلهةً ينشرون الموتى[2]، وعطْفُ الإضرابِ الانتقاليِّ للجملة على الجملة المتحقّق بـ﴿أَمِ﴾ المنقطعة غرضُهُ الانتقال من إثْباتِ صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ وحُجّيةِ دَلالَةِ القُرْآنِ إلى إبْطالِ الإشْراكِ، انْتِقالًا من بَقيَّةِ الغَرضِ السّابِقِ الَّذي تَهيَّأ السّامِعُ لِلانْتِقالِ مِنْهُ بمُقْتَضى التَّخلُّصِ الَّذي في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ إلى التَّمحُّضِ لِغَرضِ إبْطالِ الإشْراكِ وإبْطالِ تَعدُّدِ الآلِهَةِ[3].

(1) الأزهري، التهذيب، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عرش).
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/ 566، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرّ المصون: 8/ 141.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 37.

بيان الحكمة من الخلق توبيخٌ للمنكر

ومن معاني الإضراب الذي تفيده ﴿أَمِ﴾: "الانتقالُ من فنٍّ إلى فنٍّ آخر من التوبيخ إثرَ تحقيق الحقّ ببيان أنه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة، وأنهم قاطبةً تحت ملكوته وقهره، وأن عبادَه مُذعِنون لطاعته ومُثابرون على عبادته، مُنزِّهون له عن كل ما لا يليقُ بشأنِه من الأمور التي من جملتها الأندادُ"[1].

إيثار التّعبير بالفعل ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ ماضيًا:

اتّخذ المشركون آلهةً في غاية العجز وعدم القدرة

الأخذ: هو حوز الشيء وتحصيله تارةً بالتّناول، وتارةً بالقهر، والاتّخاذ افتعال من الأخذ[2] يدلّ على المبالغة في تحصيل الفعل؛ أيْ: إنَّهم بالغوا في اتخاذ آلهةٍ من الأرض، وصوغُهُ على هيئةِ الفعل الماضي دالٌّ في أصل وضعه على التَّحقُّق والحصول، فجعل الاتِّخاذ واقعًا منهم لا محالة، فعبّر عن المستقبل بلفظ الماضي تنزيلًا لما هو مُتحقِّق الوقوع كالواقع.

مرجع الضَّمير في الفعل ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

لا يُصلح الوجودَ إلّا إلـهٌ واحـدٌ، كما أنَّه لم يُوجَد إلّا بربٍّ واحدٍ

الضمير هنا "عائدٌ إلى المُشْرِكينَ المُتَبادِرينَ من المَقام في مِثْلِ هذه الضَّمائِرِ، ولهُ نَظائِرُ كَثيرَةٌ في القُرْآنِ، ويجوزُ جَعْلُهُ التِفاتًا عَنْ ضَميرِ ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، ويجوزُ أنْ يَكونَ مُتَناسِقًا مَع ضَمائِرِ ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الأنبياء: 5] وما بَعْدَهُ"[3].

سرُّ تنكير ﴿ءَالِهَةً﴾:

اتِّخاذُ آلهةٍ لا نفع منها ولا جدوى، دالٌّ على سفاهة مَنْ عَبَدَها وسوء تفكيره

ورد لفظ الآلهة هنا مُنكَّرًا للتَّقليل والتَّحقير؛ لكونها لا نفع منها ولا جدوى؛ فهي لا تُغني عنهم من عذاب الله شيئًا؛ إذ هي لا تملك من أمرها مثقال ذرة من خير أو شرٍّ أو نفع أو ضرٍّ" فهل هذه الآلهة التي اتخذوها تستطيع أن تُعيد الحياة إلى الأموات؟ كلا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 61.
(2) الراغب، المفردات: (أخذ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 37.

إنَّها لا تستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم، وما دام الأمر كذلك فكيف أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهةً لا تستطيع أن تفعل شيئًا من ذلك أو من غيره؟ إنَّ اتخاذهم هذا لَمِن أكبر الأدلة وأوضحها على جهالاتهم وسفاهاتهم وسوء تفكيرهم"[1].

سرُّ تقييد وصف الآلهة بكونها ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

وصْفُ الآلهة بكونها من الأرض إشارة إلى أنَّها من الأصنام المعبودة في الأرض، وهذا تهكُّمٌ وتوبيخٌ وتجهيلٌ وتحقيرٌ لهم على سفههم هذا، وهم لم يصلهم منها نفعٌ ولا ضرٌّ ولا حياةٌ ولا نشورٌ البتَّة، وهذا كلُّه تعريض بأنَّ مَنْ كانوا مثل ذلك لا يستحقّون بحال من الأحوال أن يكونوا معبودين أو أن يُتَّخذوا آلهة.

تعريضٌ بجهل هؤلاء المشركين وغباوتهم إذ يعبدون ما يصنعونه بأيديهم

سرُّ تخصيص الأرض بالذِّكر هنا:

معنى قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أيْ: إنَّ أصنامهم التي يعبدونها ويشاهدونها هي أرضيّة مصنوعة من حجارتها ونحوها، وهي وكل ما فيها طَوْع مشيئته، وفي هذا الاستفهام تهكُّمٌ بهم بالإشارة إلى أنَّهم عبدوا ما هو من أدنى ما في الأرض مع أنَّه ليس في الأرض ما يستحقُّ أن يُعبد؛ لأنَّ الإنسان أشرف ما فيها، ولا يخفى ما له من الحاجة المُبعدَة من تلك الرُّتبَة السّماء[2].

تعديد آلهة مخلوقة لا قدرة لها دليل سفه أهل الأرض، واختلال أحلامهم

"وذِكْرُ الأرْضِ هُنا مُقابَلةٌ لهذه الآلهة مع أهْلِ السَّماءِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يفترون عن تسبيحه ليل نهار[3]، وأراد بالمقابلة هنا المقابلة المعنوية، وفي هذا إشارة بيِّنة إلى أنَّ أهل السَّماء لا يفعلون فِعالَ أهل الأرض؛ فأهل السَّماء يعبدون إلهًا واحدًا مُنزَّهًا عن المُماثلة والمُشاركة، وهم

شتّان بين مَنْ يعبد الخالق دون تعبٍ أو فتورٍ، وبين مَن يعبدُ آلهةً مخلوقة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 402، 403.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 37، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4846.

يفعلون ذلك بيقين راسخ لعلمهم بصاحب المُلك والملكوت، وأهل الأرض اختلَّت أحلامهم وتسفَّهت آراؤهم فعدَّدوا آلهةً لا تُسمن ولا تُغني من جوع دليلًا على فساد المُعتقَد وسفاهة العقول والأحلام.

دلالة ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾:

آلهة المشركين التي يزعمونها لا تُحيي ميتًا ولا تنشره فتخرجه إلى الحياة

ضمير الفصل من أدوات توكيد الكلام؛ فيُؤتى به لتوكيد مضمون الجملة التي ورد فيها، فضلًا عن معنى الاختصاص مع دلالة أنَّ ما بعده خبر لا صفة، فوروده في الآية ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ لتوكيد توبيخ هذه المعتقدات من هؤلاء المشركين، وأنَّ آلهتهم التي يزعمونها لا تُحيي ميتًا ولا تنشره فتخرجه إلى الحياة، ثمَّ جعل الحديث خاصًّا بهذه الآلهة دون سواها وألّا ينشر غيرها مع أنَّها لا قدرة لها على نشر الموتى من قبورهم، كما دلَّ على أن جملة ﴿يُنشِرُونَ﴾ بفعلها وفاعلها ومفعولها المحذوف خبرٌ لهذا الضمير؛ وليست صفة له.

إيثار التعبير بالفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾ دون غيره:

تحدٍّ يُلجم الكفار ويُظهر سفههم

النُّشور اسمٌ لظهور المبعوثين من الأرض وانكشاف أعمالهم للخلائق[1]، وهو في الآية ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ "مَسوقٌ لِلتَّهكُّم وإدْماجٌ لِإثْباتِ البَعْثِ بطريقة سوق المَعْلوم مساق غَيْرِه المُسَمّى بتجاهل العارِف، إذْ أبْرَز تَكْذيبَهُم بالبَعْثِ الَّذي أخْبَرهُمُ الله على لِسانِ مُحَمَّدٍ ﷺ في صورَةِ تَكْذيبِهم اسْتِطاعَة الله ذلك وعجْزَهُ عَنْهُ؛ أيْ إنَّ الأوْلَى بالقُدْرَةِ على البَعْثِ شُرَكاؤُهُم، فكانَ وُقوعُ البَعْثِ أمرًا لا يَنْبَغي النِّزاعُ فيهِ، فإنْ نازَع فيه المُنازِعونَ فإنَّما يُنازِعونَ في نِسْبَتِه إلى الله ويرومونَ بذلك نِسْبَتَهُ إلى شُرَكائِهِم، فأُنْكِرَتْ عليهِم هذه النِّسْبَةُ على هذه الطَّريقَةِ المُفْعَمةِ بالنُّكَتِ"[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 285.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 38.

التعبير بالفعل المضارع ﴿يُنشِرُونَ﴾:

الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾ ورد هنا مضارعًا للدّلالة على تجدُّد النشر وحدوثه شيئًا فشيئًا مع استحضار صورته الماضية أمام النّاظرين، وهو ترسيخ للتهّكم بهم لعدم قدرتهم على بعث الموات.

أغلقوا عقولهم فكانوا حقيقين بعد بالإعراض عنهم بالتّوبيخ والتّهكم والتّعنيف

تقدير متعلّق الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾:

حُذف متعلّق الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾ هنا؛ لكونه معلومًا بدلالة الحال والسّياق؛ لأنَّ المراد بالنشر المقصود في الآية هو نشرُ الأموات وإحياؤهم، والمعنى: هم يبعثون الأموات؛ إذ لا يستحقُّ الإلهيَّة إلّا مَن يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم، والإنعام بأبلغ وجوه النِّعم وهو الله ﷻ.

لا يستحقُّ أن يكون معبودًا إلّا مَن قدر على الإحياء والإيجاد من العدم

مرجع الضمير في الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾:

الضمير في الفعل ﴿يُنشِرُونَ﴾ عائدٌ على الآلهة المزعومة التي اتَّخذها هؤلاء المشركون أندادًا من دون الله تعالى، والضمير الأول - وهو ضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ - مقدَّم فيه معنى التَّخصيص للتَّنبيه على كمال مباينة حالهم للإنشار المُوجبة لمزيد الإنكار، وقيل: إنَّه قُدِّم للتقوى، لكونه ترشيحًا لما أبداه من أنَّ الإلهيَّة لا تصحُّ دون القدرة على الإنشار، "وجُوِّزَ أنْ تَكُونَ جُملَةُ ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ مُسْتَأْنَفَةً مُقَدَّرًا مَعَها اسْتِفْهامٌ إنْكارِيٌّ لِبَيانِ عِلَّةِ إنْكارِ الِاتِّخاذِ"[1]، ومرجعُ الضَّمير في الفعل إلى هذه الآلهة يدور عليه الإنكار والتَّجهيل والتَّشنيع عليها لعدم جدواها وقدرتها على هذا الإحياء والبعث البتَّة.

لا تصحّ الألوهيَّة دون القُدرة على الإنشار

سرُّ الفصل في قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لكمال الاتِّصال؛ لكونها عطف بيان للإنكار الوارد في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً

خطابٌ حكيمٌ ينتفع به أصحاب العقول الواعية

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 17/ 22.

مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ومن هنا وردت مفصولةً لا معطوفة، وهي هنا إبطالٌ لتعدُّد الإله، قال البقاعي: "ولمّا كان الجواب قطعًا: لم يتَّخذوا آلهةً بهذا الوصف، ولا شيء غيره سبحانه يستحق وصف الإلهيَّة، أقام البرهان القطعيَّ على صحَّة نفي إلهٍ غيره ببرهان التَّمانع، وهو أشدُّ برهانٍ لأهل الكلام"[1].

معنى ﴿لَوۡ﴾:

العقول المدركة يستحيل عندها أن تتعدد الآلهة

أتت ﴿لَوۡ﴾ في قوله ﷻ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ للدلالة على عدم تحقُّق وجود الآلهة أو تعدُّدها لامتناع ذلك وفساد حصوله؛ أي: امتنع الفساد في الكون لامتناع أن يكون فيهما غير الله.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كَانَ﴾ ماضيًا:

إقامة الحُجَّة على سبيل الفرض لدحض موقف الكافرين

الفعل الماضي دالٌّ في استعماله على تحقُّق الفعل وحصوله، والمراد في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾: لو حصل ووقع بشكل قطعيٍّ راسخ وجود آلهة أخرى غير الله تعالى لفسدتِ السماوات والأرض ومَن فيهن ولكنَّ ذلك لم يكن، فالتعبير بالماضي لمزيد الإنكار عليهم.

التَّعبير بحرف الظَّرفية (في):

السَّماء والأرض موضع الأسرار ما بقي الليل والنَّهار

الحرف (في) من حروف الجرِّ الدّالَّة هنا على الظَّرفية، وتارة يكون الظرف والمظروف حسّيين وتارة يكونان معنويين، والظرف في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ حقيقة لكون كلٍّ من السَّماء والأرض أمريْن محسوسيْن يراهما الخلائق جميعًا، ودلَّ استعمال حرف الظَّرفيَّة على التَّمكُّن والاستقرار في هذيْن المخلوقيْن العظيميْن؛ إذ لا يتعدّاهما الخلق سواء من أهل السماء من الملائكة أو من أهل الأرض فإنَّ الوجود يكون فيهما، فليس في الكون شيء غيرهما؛ فهما المخصوصان بالذِّكر.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرَر: 12/ 403.

دلالة عود ضمير المثنى ﴿فِيهِمَآ﴾:

عاد ضمير الظَّرفيَّة المُثنَّى في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾ على كلٍّ من السَّماوات والأرض؛ فلا شيء أو مخلوق يُقصد سواهما، والمعنى: "لَوْ كانَ في السَّماواتِ والأرْضِ آلِهَةٌ أُخْرَى ولم يَكُنْ جَميعُ مَنْ فيها مِلْكًا للّه وعِبادًا لَهُ؛ لَفسدتِ السَّماواتُ والأرْضُ واخْتَلَّ نِظامَهُما الَّذي خُلِقَتا بِهِ، وهذا اسْتِدْلالٌ على بُطْلانِ عَقيدَةِ المُشْرِكينَ إذْ زَعموا أنَّ اللّه جَعل آلِهَةً شُرَكاءَ لَهُ في تَدْبيرِ الخَلْقِ، أيْ: إنَّهُ بَعْدَ أنْ خَلق السَّماواتِ والأرْضَ أقامَ في الأرْضِ شُرَكاءَ لَهُ"[1].

محاورةٌ عقلية تثبتُ بُطْلانَ عَقيدَةِ المُشْرِكينَ الزاعِمين وجود آلِهَةٍ من دون اللهُ

دلالة تنكير ﴿ءَالِهَةٌ﴾:

النَّكرة هي ما شاع في جنسه دون أن يدلَّ على معيَّنٍ، وتنكير ﴿ءَالِهَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ غرضه التقليل والتَّحقير من شأن هذه التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع ولا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًّا ولا حياةً ولا نُشورًا، وقرائن الأحوال وسياقات الكلام على تحقير هذه الآلهة المزعومة؛ إذ لو كانت نافعةً لنفعت نفسها أوَّلًا.

هل تستحقُّ مثل هذه الآلهة المزعومة العاجزة تعريفًا يُذكر؟!

مفهومُ الاستثناءِ في الآية:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ للوصف بمعنى (غير)؛ لأنَّه لا ارتباط بين المُستثنى والمُستثنى منه حتى يجعل أحدهما مُستثنى من الآخر، فما قبلها لا يشمل ما بعدها بأي نوعٍ من الشمول؛ بل بينهما غيريَّة مُطلقة فلا ارتباط، والدَّليل رفع لفظ الجلالة؛ إذ لو كان مُنقطعًا لكان منصوبًا، فدلَّ على أنَّه لا استثناء قط، وعلى ذلك تكون (لا) وصفًا بمعنى (غير)، ويكون المعنى أنَّه امتنع التالي في هذه الشَّرطيَّة؛ وهو الفساد؛ لأنَّه يُخالف الحِسّ[2]؛ وفيها إثبات

تَفسدُ الرَّعية بتدبير الإلهيْن لما يحدث بينهما من التَّغالب والتَّناكر والاختلاف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 38، 39.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4847.

الإلهيَّة لله ونفيها عمّا عداه؛ لأنَّ (لولا) المفيدة للامتناع، مفيدةٌ للنَّفي أيضًا؛ فالكلام في قوَّة أن يُقال: (ما فيهما آلهة إلّا الله)[1].

سرُّ إظهار اسمه الأعظم ورفعه:

نظام العالم العُلوي والسُّفلي وكماله دليلٌ على أن المُدبِّر واحدٌ

إظهار اسمه الأعظم المُتفرِّد بصفة الكمال في موضع إثبات الوحدانيّة يُناسب تفرُّده بالجلال والكمال والألوهيَّة، ورُفع على أنَّ ﴿إِلَّا﴾ صفة بمعنى غير، "ولا يجوز أن يكون بدلًا؛ لأنَّ المعنى يصير إلى قولك: (لو كان فيهما الله لفسدتا)، ألا ترى أنَّك لو قلتَ: (ما جاءني قومُك إلّا زيدٌ) على البدل لكان: جاءني زيدٌ وحده، وقيل: يمتنع البدل لأنَّ ما قبلها إيجابٌ.

الإعراب بالنصب ودلالته

ولا يجوز النَّصب على الاستثناء لوجهيْن: أحدهما أنَّه فاسدٌ في المعنى، وذلك أنَّك إذا قلتَ: (لو جاءني القوم إلّا زيدًا لقتلتهم)؛ كان معناه أنَّ القتل امتنع لكون زيد مع القوم، فلو نُصبت في الآية لكان المعنى: إنَّ فساد السّماوات والأرض امتنع لوجود الله تعالى مع الآلهة، وفي ذلك إثبات إلهٍ مع الله، وإذا رُفعت على الوصف لا يلزم مثل ذلك لأنَّ المعنى: لو كان فيهما غير الله لفسدتا، والوجه الثاني: أنَّ ﴿ءَالِهَةٌ﴾ هنا نَكِرة؛ والجمع إذا كان نَكِرةً لم يُستثنَ منه عند جماعة من المُحقِّقين؛ لأنَّه لا عموم له بحيث يدخل فيه المُستثنى لولا الاستثناء"[2].

دلالة جمع ﴿ءَالِهَةٌ﴾ في مقابلة الذّات العَليَّة:

تعدُّد الآلهة عند المشركين خير دليل على ألوهيَّة الله تعالى وحده لا شريك له

"وإيرادُ الجمع لوروده إثرَ إنكار اتخاذِ الآلهة لا لأنَّ للجمعية مدخلاً في الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما"[3]، وقال البقاعي: "لو كان فيهما آلهة غيره ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لقضاء العادة بالخلاف بين المُتكافئين المُؤدّي إلى ذلك، ولقضاء العقل بإمكان الاختلاف

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 403.
(2) العكبري، إملاء ما مَنَّ به الرحمن: 2/ 131، 132.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 61.

اللّازم منه إمكان التَّمانع اللّازم منه إمكان عجز أحدهما اللّازم منه ألّا يكون إلهًا لحاجته، وإذا انتفى الجَمعُ، انتفى الاثنان من باب الأوْلى؛ لأنَّ الجمع كلَّما زاد حارب بعضهم بعضًا؛ فقَلّ الفساد كما نُشاهِد"[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَفَسَدَتَا﴾:

اللّام واقعة في جواب ﴿لَوْ﴾؛ والمعنى عليه: (لو حصل وتحقَّق وجود آلهة أخرى غير اللّه تعالى في السماوات والأرض تدبُّر أمرهما لتحقَّق وقوع الفساد والخراب لهما وخروجهما عن نظامهما البديع الذي أوجده اللّه تعالى لا خلل فيه ولا اضطراب، ولما رُئيَ هذا الكون يسير بنظام دقيقٍ، ويقوم على عملٍ مُحكَم؛ أبان ذلك عن أنَّ له إلهًا قادرًا حكيمًا لا يُشاركه أحدٌ فيه على الإطلاق).

دعوة للتَّفكُّر في عاقبة الأمور لو تعدَّدت الآلهة

دلالة التَّعبير بلفظ الفساد دون غيره:

الفساد خروج عن جادَّة الصَّواب والاعتدال، فإذا تعدَّدت الآلهة في الكون؛ أخرج هذا التَّعدُّد الكون القديم لاختلاف الأمزجة والأهواء حينئذٍ، وهي كناية دقيقة عن هذا النِّظام الذي أحكم اللّه كونه عليه بما لا يستطيع غيره إخراجه عن هذا الخلق المُحكَم؛ فاللفظة "مَسوقَةٌ لِإثْباتِ الوحْدانيةِ لا لِإثْباتِ وُجودِ الصّانِعِ إذْ لا نِزاعَ فيه عِنْدَ المُخاطَبينَ، ولا لِإثْباتِ انْفِرادِه بالخَلْقِ، إذْ لا نِزاعَ فيه كَذلك، ولكِنَّها مُنْتَظِمَةٌ على ما يُناسِبُ اعْتِقادَهُمُ الباطِلَ لِكَشْفِ خَطئِهِم وإعْلانِ باطِلِهِم"[2].

من فساد عقولهم أنَّهم يُقرّون بوحدانيَّة اللّه تعالى ويؤمنون بتعدد الآلهة

بلاغة الاستعارة في لفظ الفساد:

في لفظ الفساد استعارةٌ مكنيَّة؛ إذْ شُبِّهت السّماء والأرض في صلاحهما ونظامهما بالثَّمرِ يُترَكُ بفعل فاعل حتَّى يصيبه الفساد

أيُّ قدرة غير قدرة اللّه تُفسدُ السماء والأرض وهو من المُحال؟!

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 403.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 39.

ويخرج عن دائرة الصلاح، ثمَّ حُذف المُشبَّه به ودُلَّ عليه بلازِمِه – وهو الفساد – على سبيل الاستعارة المَكنيَّة، ولإثبات هذا اللّازم استعارة تخيليَّة وهي قرينة المَكنيَّة، مبالغة في خروج هذيْن المخلوقيْن عن دائرة الصَّلاح مع تدخُّل مؤثِّر خارجيٍّ أدَّى إلى فسادهما.

إعجاز المبالغة في نظم الآية:

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ إخراجٌ للكلام مخرجَ الشكّ للمبالغة في العَدلِ، لتهزيز ضمائر أهل الريبة، ودمغ باطلهم ببراهين الحق، وإيقاظ أذهانهم إلى أنّ ما يرَوْنَه من انتظام الكون بسمائه وأرضه دليلٌ على وحدانية الله تعالى، فيأتي ملزوم الآية بتقدير: (لكنّهما ما فسدتا، فليس فيهما آلهة إلا الله) [1].

إيـقـاظ ضمير المرتاب لتوحيد ربّ الأرباب

معنى الفاء في قوله: ﴿فَسُبۡحَٰنَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عاطفة لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، "وفُرِّعَ على هذا الاِسْتِدْلالِ إنْشاءُ تَنْزيه اللّه تَعالى عَنِ المَقالَةِ الَّتي أبْطَلها الدَّليلُ بقَوْلِه تَعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أيْ: عَمّا يَصِفونَهُ به مِنْ وُجودِ الشَّريكِ"[2]، "فلمّا أفاد هذا الدليل أنه لا يجوز أن يكون المُدبِّر لها إلّا واحدًا، وأنَّ ذلك الواحد لا يكون إلّا الله قال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: فتسبَّب عن ذلك تنزُّه المُتَّصِف بصفات الكمال"[3].

تنزيهٌ لله تعالى عن كلّ نقص

سرُّ وُرود التَّسبيح ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾:

اصطفاء التسبيح هنا في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهٌ له ﷻ عمّا قال الجاهلون المُعانِدون في حقِّه

جعلُ الجَماد الَّذي لا يَعْقِلُ ولا يُحِسُّ شَريكًا في الإلَهيةِ أمرٌ تأباه العقول

(1) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص: 39 - 40.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 44.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 403، 404.

تعالى؛ والمعنى: تنزيهًا لله ﷻ وتبرئة لذاته أن يكون له نِدٌّ أو شريكٌ في أُلوهيَّته، تعالى الله عمّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا، يقول الفخر الرازي: "إنَّ اللّه تَعالى بَعْدَ ذِكْرِ الدَّليلِ العامِّ نَبَّه على نُكْتَةٍ خاصَّةٍ بعَبدةِ الأصْنامِ؛ وهي أنَّهُ كَيْفَ يَجوزُ لِلْعاقِلِ أنْ يَجْعَل الجَمادَ الَّذي لا يَعْقِلُ ولا يُحِسُّ شَريكًا في الإلَهيةِ لِخالِقِ العرش العظيم ومُوجِد السماوات والأرضينَ"[1].

غرضُ إظهارِ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ورد لفظ الجلالة في مقام الإظهار؛ وذلك "للإشعارِ بعلَّةِ الحُكْم؛ فإنَّ الأُلوهيَّةَ مناطٌ لجميع صفاتِ كمالِه التي من جملتها تنزّهُه تعالى عما لا يليق به، ولتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوعة"[2].

الـذي حـاورهـم بعقولهم قـادرٌ على أن يُنزل بهم أشدَّ العذاب

دلالةُ إعادةِ وصفِ الذّاتِ العليَّة بالرُّبوبيَّة:

ورد لفظ الرُّبوبيَّة بعد ذِكْر الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ "لتأكُّد التنزُّه مع ما في ذلك من تربية المهابة، والظّاهر أنَّ المُراد حقيقة الأمر بالتَّنزيه، وقيل: المُراد بالتَّعجيب ممَّن عبد تلك المعبودات الخسيسة وعدها شريكًا مع وجود المعبود العظيم الخالق لأعظم الأشياء، والكلام عليه أيضًا كالنتيجة لما قبله من الدَّليل"[3].

كـما فـتح ربُّـنا بـابَ الـعـذاب لـنَـفِـرَّ منه فتحَ بابَ رحمتِه لِنَفِرَّ إليه

سرُّ التَّنصيص على ذِكْر العرش مُضافًا إليه تعالى:

جملة ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ صفةٌ للاسم الجليل مُؤكِّدة تنزيهه ﷻ ردًّا على هؤلاء المشركين، إذا كان ﷻ خلق أعظم شيء في الوجود مع تملُّكه جميع المخلوقات؛ ومنها ما هو أعظم من خلق الإنسان؛ وهي

إذا كـان الـلـه تـعـالى ربًّـا للعرش الذي هو سقف المخلوقات فربوبيَّته لغيره أوْلَى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 131.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 62.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 17/ 28.

السماوات والأرض؛ ومنها العرش والكرسي، أبَعْدَ هذا كلِّه يحتاج إلى مُساندٍ له أو مساعدٍ في خلق ما خلق؟ قال ابن عاشور: "ووصْفُهُ هُنا بـ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ لِلتَّذْكيرِ بأنَّهُ انْفَرد بخَلْقِ السَّماواتِ؛ وهو شَيْءٌ لا يُنازِعونَ فيهِ؛ بَلْ هو خالِقُ أعْظَمِ السَّماواتِ وحاويها - وهو العَرْشُ - تَعْريضًا بهِم بإلْزامِهِم لازِمَ قَوْلِهِم بانْفِرادِه بالخَلْقِ أنْ يَلْزَم انْتِفاءُ الشُّرَكاءِ لَهُ فيما دونَ ذلك"[1].

مفهوم ﴿عَمَّا﴾ وسرُّ ورودها:

لم يكتفوا باعتناقهم الشِّرك؛ وإنَّما تجاوزوا حدَّهم فوصفوا الله تعالى بما لا يليق

في قول الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نجد أنَّ ﴿عَمَّا﴾ مُكوَّن من جزئيْن: (عن)، و(ما)، أمّا (عن) فهي تقتضي مجاوزة ما أُضيف إليه نحو غيره وتعدّيه عنه، وهي هنا مبيِّنة مجاوزة هؤلاء المشركين الحدَّ في وصفهم الله تعالى بما لا يليق من وجود آلهة تُشاركه في ألوهيَّته حاشاه تعالى عن ذلك.

وأمّا (ما)؛ فهي اسم موصول بمعنى: (الذي)؛ وهي من الأسماء الخبريَّة التي يستوي فيها التَّذكير والتَّأنيث والإفراد والتَّثنية والجمع، فإنْ كان المُراد بها المُذكَّر؛ كانت للتَّذكير بمعنى (الذي)، وإن كان المُراد بها المُؤنَّث؛ كانت للتَّأنيث بمعنى (التي)، والمُراد هنا: تنزيه الله تعالى عن الذي يصفونه به من وجود هذه الآلهة المزعومة، وأُقيمت عليهم الحُجَّة بأنَّ وجود هذه الآلهة يؤدّي لا محالة إلى فساد نظام الكون.

دلالة التعبير بالفعل المضارع ﴿يَصِفُونَ﴾:

جعلوا لله الصّاحبة والولد، وحاشاه ثمَّ حاشاه

في قول الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ دلَّ الفعل المضارع ﴿يَصِفُونَ﴾ على تجدُّد هذا الوصف واستمراره منهم مع استحضار صورة هذا الوصف في النفوس لتسفيه ما اجترحوه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 44.

وما تقولوا به عليه عزَّ سلطانُهُ، فصار هذا الوصف مُتجدِّدًا مُستمرًّا لا ينقطع على مرِّ الزمان إلى يوم الناس هذا.

تقدير متعلَّق الفعل ﴿يَصِفُونَ﴾:

لا يجوز أن يكون المدبّر للسماوات والأرض إلّا واحدًا هو الله تعالى

حُذف متعلَّق الفعل ﴿يَصِفُونَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لأنَّ نظر السّامع، أو المشاهد مُنصرفٌ إلى وقوع الحدث - الفعل وفاعله - دون الالتفات إلى مَن وقع عليه الفعل وهو المفعول، وهو محذوف من الجملة؛ لكونه معلومًا بدلالة الحال والسّياق، والمُراد: عمّا يصفه به المشركون من الشِّرك والولد؛ فأغنى ذِكْر الفعل والفاعل عن المفعول للعلم به كما ذكرنا.

موقع جملة ﴿يَصِفُونَ﴾ من الإعراب:

تعـدُّد الآلـهـة فسادٌ للكون مع ما يحدث لهذا الكون من خلل

جملة ﴿يَصِفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لا محلَّ لها من الإعراب صلة الموصول، والجملة هنا واردة إمّا للتَّنبيه على خطأ زعم هؤلاء فيما زعموا من نسبة الآلهة بوجودهم مع الإله الواحد ﷻ، وإمّا واردةٌ لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو نفي وجود الآلهة أصلًا؛ إذ إن وجودهم هو فساد الكون مع ما يحدث لهذا الكون من خللٍ لتنازع الأهواء وتشتُّت الآراء، وجوز أن تكون (ما) في ﴿عَمَّا﴾ مصدريَّة، والمُراد نفيُ وصفِهم هذا كلّه من الأساس.

سرُّ فصل جملة ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾:

عظمة الخالق ﷻ وكمال قدرته لا يقدر أحدٌ على معارضته وسؤاله

فُصلت جملة ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ عن سابقتها؛ إمّا لكمال الاتِّصال؛ لكونها بيانًا للحالة التي يجب أن يكون عليها الإله الحقُّ الذي يفعل في كونه ما أراد دون أن يتعرَّض له أحدٌ من مخلوقاته بسؤالٍ ما؛ لأنَّ من شأن الخالق ألّا يتجاوز المخلوق حدَّه معه، وإمّا لشبه كمال الاتِّصال على الاستئناف البيانيِّ، كأنَّ سائلًا سأل في شأنه بعد ذلك في كونه هذا؛ فجاء الجواب: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، فورود

الجملة مستأنفة مسوقة لبيان تفرُّده سبحانه بالسلطان بحيث لا يسأله أحدٌ عمّا يفعله.

وجـه إعـرابـهـا حالية ودلالته

ويجوز أن تكون الجملة حاليَّة؛ لتُكمل مَدْلول قَوْله تَعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾؛ فالمَعْنَى أنَّ مَنْ عِنْدَهُ - وهُمُ المُقَرَّبونَ من المَخْلوقاتِ - هُم مع قُرْبِهِم يُسْألونَ عَمّا يَفْعَلونَ ولا يَسْألونَهُ عَمّا يَفْعَلُ؛ أيْ: لَم يَبْلُغْ بهِم قُرْبُهُم إلى حَدِّ الإدْلالِ عليه وانْتِصابِهِم لِتَعقُّبِ أفْعالِهِ"[1].

دلالة النَّفي بـ ﴿لَا﴾:

لا يُـتـوجَّـه إليه بـسـؤال؛ لأنَّ خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال

﴿لَا﴾ دالَّة على النَّفي؛ وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وقد يُنفى المضارعُ مُرادًا به نفي الدَّوام، والنَّفي بها يتناول فعل المُتكلِّم، وتخلص المضارع للاستقبال، والمُراد بالنفي هنا نفي وقوع السُّؤال في جميع الأحوال في الحال والاستقبال؛ لأنَّه ﷻ ليس محلًّا للتَّساؤل عن إيجاد ما يُوجِد أو انعدام عُدِمَ، فلا يقع في ملكه إلّا ما أراده ﷻ؛ فهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع مبنيًّا للمفعول:

الـخـالـقُ لا يُسأل، وانتفاء وقـوع الـسُّـؤال أصـلًا امـتـنـاعٌ لتعيين السّائل

ورد الفعل ﴿يُسْـَٔلُ﴾ مضارعًا في قوله تعالى ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ للدَّلالة على عدم تجدُّد هذا السُّؤال مع استحضار هذه الصُّورة، وورد مبنيًّا للمفعول إيجازًا واختصارًا، أو لكونه معلومًا للسّامع، أو لعدم تعلُّق غرضٍ بذِكْره؛ والمعنى: لا يسأله أحدٌ من خلقه عمّا يفعله ﷻ؛ إذْ ليس بمقدور أحدٍ فعلُ ذلك، فلمّا انتفى وقوع السؤال أصلًا؛ امتنع تعيين السّائل، وقد يكون القصدُ التَّعميم؛ أيْ: لا يَسْألُ سائلٌ اللّه تَعالى عَمّا يَفْعَلُ، وكانَ مِمَّنْ يَشْمَلُهُمُ الفاعِلُ المَحْذوفُ هُم مَنْ عِنْدَهُ مِنَ المُقَرَّبينَ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 45.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 45.

دلالة مجيء الفعل ﴿يَفْعَلُ﴾ مضارعًا:

وَرَدَ فعل جملة السؤال هنا ﴿يَفْعَلُ﴾ مضارعًا للدلالة على تجدُّد فعله سبحانه واستمراره مع استحضار هذه الصورة لبيان أن وقوع أفعاله في الكون متجدِّدة مستمرّة لا تنقطع إمّا بنفع مَن أراد الله لهم النَّفع أو بهلاك مَن يستحق أن يُصيبه هذا الهَلاك وأهل المَكْر لهم مكرهم.

أفعاله تعالى في الكون مُتجدِّدة مستمرَّة لا تنقطع

سرُّ عطف الإثبات على النَّفي وتقديم النفي:

نفى ﷻ أن يسأله أحدٌ من خلقه تأكيدًا لوحدانيَّته وقدرته؛ أيْ: لا يسأله سائلٌ عمّا يفعله بعباده من إعزازٍ وإذلالٍ وهدايةٍ وإضلالٍ ...الخ؛ لأنَّه هو الرَّبُّ المُتصرِّف في شئون خلقه، وعَطْفُ المُثبتِ على المَنْفيِّ يُقوّي الأوَّل ويُؤكِّد الثّاني؛ فالخالق لا يُسأل، والمخلوق هو المسئول، و"تَقْديمَهُ على جملَة ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ اقْتَضتْهُ مُناسَبةُ الحَديثِ عَنْ تنزيهه تَعالى على الشُّرَكاءِ؛ فكانَ انْتِقالًا بَديعًا بالرُّجوعِ إلى بَقيةِ أحْوالِ المُقَرَّبينَ؛ فالمَقْصودُ أنَّ مَنْ عِنْدَهُ مَع قُرْبِهم ورِفْعَةِ شَأْنِهم؛ يُحاسِبُهُمُ الله على أعْمالِهم؛ فهُم يَخافونَ التَّقْصيرَ فيما كُلِّفوا به مِنَ الأعْمالِ؛ ولِذلك كانوا لا يَسْتَحْسِرونَ ولا يَفْتُرونَ"[1].

لا يملك الإنسان لنفسه شيئًا لعجزه وضعفه وقلّة حيلته

دلالةُ ضمير الفَصْل ﴿وَهُمْ﴾:

ضمير الفصل يفيد التأكيد والاختصاص، وأنَّ ما بعده يكون خبرًا لا صفة وهو في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ عائدٌ على العباد؛ "أيْ: والعباد يُسألون عمّا يفعلون نقيرًا وقطميرًا؛ لأنَّهم مملوكون له تعالى مُستعبَدون، وفي هذا وعيدٌ للكَفَرَة، والظّاهر أنَّ المُراد عموم النَّفي جميع الأزمان؛ أيْ: لا يُسأل سبحانه في وقتٍ من الأوقات عمّا يفعل، وخص ذلك الزَّجّاج بيوم القيامة؛ والأول أوْلى وإن كان أمر الوعيد على هذا أظهر"[2].

دعوة للتَّفكُّر في موقف السُّؤال بين يدي الجبّار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 45.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 17/ 29.

مرجع الضَّمير في الفعل ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾:

قطعَ اللهُ تعالى على المشركين كلَّ حُجَّة؛ إذ ساق لهم الأدلَّة وأرسل لهم الرُّسل

الضَّمير في الفعل إمّا أن يكون راجعًا إلى الآلهة المزعومة، وإمّا أن يكون راجعًا للعباد الموقوفين للسؤال عن أفعالهم؛ فقد ساق الله تعالى لهم الأدلة وأرسل لهم الرسل ليقطع عليهم الحُجَّة بذلك؛ فالضمير ليس براجعٍ إلى ما رَجع إلَيْه ضمير ﴿يَصِفُونَ﴾؛ لِأنَّ أولَئِكَ لا جَدْوى لِلْإخْبارِ بأنَّهُم يَسْألونَ إذْ لا يَتردَّدُ في العِلْمِ بذلك أحدٌ، ولا براجعٍ إلى ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لِعَدمِ صِحَّةِ سُؤالِهِم[1].

بلاغة الكناية في فعل السُّؤال:

المُتدبِّر الحقّ في خلق الله وحسن تدبيره لا يجد للانتقاد سبيلًا

السُّؤالُ في الآية "بمَعْنَى المُحاسَبةِ، وطلبِ بَيانِ سَببِ الفِعْلِ، وإبْداءِ المَعْذِرَةِ عَنْ فِعْلِ بَعْضِ ما يُفْعَلُ، وتخلُّصٍ مِنْ مَلامٍ أوْ عِتابٍ على ما يُفْعَلُ، فكوْنُهُم يُسْألونَ كِنايَةً عَنِ العُبودِيةِ؛ لِأنَّ العَبْدَ بمَظِنَّةِ المُؤاخَذةِ على ما يُفْعَلُ وما لا يفعل، وبمظنَّة التَّعرُّض لِلْخَطأ في بَعْضِ ما يُفْعَلُ، وفي هذا إبْطالٌ لِإلَهيَّةِ المُقَرَّبينَ الَّتي زَعمها المُشْركونَ الَّذينَ عَبدوا المَلائِكَة وزعموهُم بَناتِ الله تَعالى، بطَريقَةِ انْتِفاءِ خاصّيَّةِ الإلَه الحَقِّ عَنْهُم إذْ هُم يُسْألونَ عَمّا يَفْعَلونَ، وشأْنُ الإلَه ألّا يُسْأل، وتُسْتَخْرَجُ من جملَة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ كِنايَة عَنْ جَريانِ أفْعالِ اللهِ تَعالى على مُقْتَضى الحِكْمَةِ بحَيْثُ إنَّها لا مَجالَ فيها لانْتِقادِ مُنْتَقِدٍ إذا أتْقَنَ النّاظِرُ التَّدبُّرَ فيها، أوْ كُشِفَ لَهُ عَمّا خَفي مِنْها"[2].

سرُّ وُرودِ الطِّباق في الآية:

اللهُ تعالى سائلٌ وعبدُهُ مسئولٌ

ورد في الآية ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ نفيُ السُّؤال أولًا، ثم عُطف عليه إثبات السُّؤال، ويُسمَّى هذا طباق السَّلْب الذي يجمع بين المُثبَت والمَنْفيِّ تأكيدًا لتنزيهه ﷻ عن وجود الشريك، ومعلومٌ أنَّ الضِّدَّ يُظهر حُسْنَه الضِّدُّ، فلا سؤال للخلق مع الخالق حاشاه ذلك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 46.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 46.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّشر والحياة:

إثبـات الكمال الأزلـيّ للخالق والـنَّـقـص عند المخلوق

النَّشر يدلُّ في أصله على فتح شيء وتشعُّبه وتفرُّقٍ ببسطٍ وامتدادٍ، والنُّشور: الحياة بعد الموت، يُقال: نَشرهُمُ اللّه؛ أيْ: بَعثهم[1]؛ لأنَّ البعث إثارةٌ وإقامةٌ يظهر فيهما الامتداد والانبساط[2]، أمّا الحياة فهي خلاف الموت، وليس فيه المعاني التي تتضمَّنها لفظة النَّشر، وقوله تعالى ﴿يُنشِرُونَ﴾ من إنشار الأموات؛ أيْ: بعثهم، وإحياؤهم؛ ومن هنا فهو أنسب في سياقه لما فيه من تهكُّم بهم لعدم قدرتهم على بعث الموات.

الصِّفة والنَّعت:

من شدّة كفرهم وصفوه عزَّ شأنه بـما لا يليـــق به، تعالـى عمّا يصفون

"النَّعْتُ وصْفُ الشَّيْءِ بما فيه مِن حُسْن، ولا يُقالُ في القَبيحِ إلّا أن يَتكلَّف مُتَكلِّف، فيقولُ: نَعْتَ سَوْءٍ؛ والوصْفُ يُقالُ في الحَسن والقَبيح"[3]، والنَّعت يكون للحاليَّة، كالطويل والقصير، والصِّفة للفعل، والنَّعت ما كان خاصًّا بمحلٍ من الجسد؛ كالأعرج مثلًا، والصِّفة للعموم، كالعظيم والكريم؛ فاللّه تعالى يُوصَف ولا يُنعت[4]، ولما كانت الصفة دالّة على العموم، وخرج لفظ الوصف إلى أداء معنيي الحسن والقبح، وكان وصفهم له لا يليق بعظمته وجلاله سبحانه عمّا يصفون؛ أوثر لفظ ﴿يَصِفُونَ﴾ في سياق الآية دون (ينعتون) المختصّ بدلالة الحُسن.

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكَم، والراغب، المُفردات، وابن الأثير، النهاية: (نشر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نشر).
(3) ابن الأثير، النهاية: (نعت).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (نعت).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»